مقاربة تاريخية لإشكالية الاتحاد المغاربي... تحديات الراهن و المستقبل !؟

د/ يوسف قاسمي
جامعة قالمة

الملخص :

إن مشكلة الحدود" السياسية الموروثة عن التقسيم الاستعماري، والنزاع القائم في الصحراء الغربية منذ أزيد من 40 سنة ولا يزال، يشكلان مصدرا رئيسا للتوترات السياسية والدبلوماسية المترتبة عنه بين الجزائر والمغرب. وقد تزايدت حدتها بعد عشرية العنف الإرهابية التي مرت بها بلادنا خلال عقد التسعينات من القرن20م، وتصاعد الاتهامات المتبادلة بين الجارتين مما أفضى إلى غلق الحدود بين البلدين عام 1994م. تمثل هذه إشكاليات تحول دون التقارب الوحدوي الحقيقي بين شعوب وحكومات" الاتحاد المغاربي"؛ الذي بقي يراوح مكانه منذ أكثر من ربع قــرن من التأسيس!.. الورقة العلمية متابعة للموضوع–الإشكالية في مقــاربة تعمد التاريخ كأرضية، ومنهجي التقصي التاريخي والتحليــل كأداتين للبحث التأطير المعــرفي.

Résumé:

Le Problème des bordures géographiques héritées de la partition coloniale, et les conflits existant dans le Sahara ouest de puis plus de 40 ans constituent toujours une majeure source de tensions politiques et diplomatiques entre l'Algérie et le Maroc. Ces intensions ont augmenté surtout après la violence terroriste décimale vécue par notre pays dans les années 90 du 20 e siècle, ainsi qu'à cause des accusations intensifiées entre les deux voisins concernant, Ce qui résulte la fermeture de la frontière entre les deux pays en 1994, Ces problématiques existants entre les deux pays empêchent encore la convergence réelle unioniste entre les peuples et les gouvernements appelé "Union du Maghreb arabe" qui est resté à l'arrêt pendant plus d'un quart de siècle d'incorporation.. Cette feuille scientifique on étudie le problématique dans le contexte d'une approche délibérément l'histoire comme une plate-forme, Et la recherche historique et l'analyse comme des outils pour la recherche cognitive cadrage.

مقدمة:

نعتقد بأن طول مرحلة الاستيطان الاستعماري الفرنسي؛ خاصة الايطالي–الاسباني، وعنفه الممنهج الذي طبقه حيال الذاكـــرة التاريخية الفردية والجماعية للشعـــوب المغاربية، مستهدفا القضاء على مكونات هويتها الحضارية المشتركة.. شكلت مجتمعة إحدى العناوين الكبرى لسلب الذات، زعزعة الثقة والوعي بأهمية الجماعة وضرورات الاتصال فيما بينها؛ بما يغذي ويعزز فكرة الوحدة والعيش المشترك. وتشكل حالات الإرباك والصراعات المزمنة بين الدول المغـــاربية إحدى تجليات مخلفات الاستعمار. لتأتي مشكلة الحدود الجغرافية الموروثة عن التقسيم الاستعماري، منذ أزيد من 40 لاسنة ولا يزال؛ مصدرا رئيسا للتوترات السياسية والدبلوماسية المترتبة عنه بين الجزائر والمغرب. تزايدت حدتها بعد عشرية العنف الإرهابية التي مرت بها بلادنا خلال عقد التسعينات من القـــرن الماضي، وتصاعد الاتهامات المتبـــادلة بين الجارتين بخصوص: الدعم اللوجيستيكي لجماعات العنف السياسي بالجزائر، تهريب الأفيون عبر الحدود، فضلا عن مسألة التعويضات العالقة بخصوص الممتلكات العقارية المنزوعة تعسفا من أصحابها... وغيرها. كلها ملفات ملغمة وموقوتة تنذر و تلقي بظلالها السلبية على علاقات الجوار بين البلدين الشقيقين. أفضت إلى غلق الحدود بين البلدين عام 1994م. إشكالية تحول دون التقارب الوحدوي بين حكومات "الاتحاد المغاربي"؛ الذي يراوح مكانه منذ أكثر من ربع قـــرن من التأسيس. لعل شيئا من الحس القومي، الجهد الذهني، الواقعية البرغماتية، والنظرة المستقبلية.. قد تمكننا من تصور صيغ عديدة لحل المشكلات العالقة؛ خاصة المشكلة الصحراوية. من خلال بحث صيغة توفيقية تجمع بين مبدأ حق تقرير المصير للشعب الصحراوي ومطالب الوحدة الترابية المغربية، كما حق دول الجوار في الاطمئنان على أمنها القومي حيال جغرافية سياسية غير مستقرة. المقاربة الجديدة التي نعتقد نجاعتها تشكل مدخلا إنسانيا –سياسيا أولي لتفعيل مشروع الإتحاد المغاربي وانجاز أهدافه المشتركة. ضمن هذه الرؤية تبدو الحاجة ملحة إلى إعادة القراءة ومقاربة "المشكلة الصحراوية كعنوان بارز تتفاعل في سياقاته و مناحيه إشكالية الاتحاد المغاربي المعطل ! الورقة العلمية تتابع الموضوع–الإشكالية في إطار مقاربة تعمد التاريخ كمنطلق، حقائق الواقع كشاهد، كما متغيرات المحيط الإقليمي والدولي كمحفز ورهان. بخطة تقوم على

العناصر التالية: 1- مدخل مفاهيمي..للوحدة المغاربية وأسسها. 2- التجارب الوحدوية المغاربية في التاريخ المعاصر. 3- إشكالية الإتحاد المغاربي بين حقائق التاريخ ومغالطات الجيو-سياسية. 4-كرونولجيا تاريخية للقضية الصحراوية..مقاربتها معرفيا.

1- مدخـــل مفاهيمي عـــام:

أصل التسمية: المغرب العربي؛ كلمة "مغرب" تعني "الغرب" وتدل عادة على جـــل المناطق الواقعة غرب وادي النيل (ليبيا، تونس، الجـــزائر، المغـــرب، موريتانيا) و هو جزء مهم من الأمة العربية وجناحها الغربي مقابل الجناح الشرقي. يعتقد أن تشكل الإطار الجغرافي والتسمية التاريخية " للمغرب العربي" تعود إلى العصور الوسطى، و تمتد جغرافيا من برقة إلى طنجة الخضراء. و يذهب المؤرخ الفرنسي "شـــارل أندري جوليان" إلى (أن تونس والجزائر مجتمعة تؤلف وحدة جغرافية وانتربولوجيا مستقلة عن بقية أجزاء القـــارة.) (1) في حين أطلق المؤرخ الإغـــريقي القديم "هيرودوت" اسم "ليبيا" على القطاع الجغرافي من غرب مصر حتى المحيط الأطلسي، واسم "الليبيين" على أهل سكان هذا الإقليم تمييزا عمن جاورهم من سكان جنوب الصحراء. أما القرطاجيون فقد أطلقوا تسمية "الافـــري" على السكان الأصليين للمنطقة يقصد بها سكان الكهـــوف والمغارات، منها كلمة "إفريقيا" التي أصبحت تطلق على كامل القـــارة.([2]) في عهد الرومان و البيزنطيين توسع المجال الجغرافي لكلمة " إفريقيا"؛ حيث أصبحت تطلق على المنطقة الممتدة من برقـــة شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا. و في العهد الإسلامي (القرن 8م / 92 هـــ) حافظ المسلمون على نفس التسمية "افريقية"؛ وهي الأكثر شيوعا. و ذكـــرها عمر بن الخطاب في رسالته إلى عمرو بن العاص بعـــد أن استأذنه الأخير في فتح بلاد المغرب، فنهاه عن ذلك قائلا: (إنها ليست افريقية ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها ولا يغزوها أحد ما بقيت.)([3]) جاء ذلك في كتاب "فتوح مصر والمغرب" لابن الحكم، وظلت التسمية افريقيـــة متداولة حتى ظهرت التسمية الجديدة "المغرب."([4]) واستعملت تسمية "المغرب" لتميزها كإقليم غربي للعالم الإسلامي؛ حيث ذكر ابن الأثير أن الخليفة علي بن أبي طالب قال مخاطبا أصحابه: (تجهزوا لمحاربة عدوكم من أهل المغرب.) ([5]) واستقرت تسمية "المغرب العربي" الذي أنهى تداول التسميات القديمة "ليبيا"، "إفريقيا"... الخ، التي تهدف -بحسب مبارك الميلي- إلى تجزئة المنطقة

إلى أجزاء متعددة التسمية للسيطرة عليها؛ لتأخذ طابعا سياسيا رسميا مع النصف الثاني للقرن 20م بتسمية "الاتحاد المغاربي" عام 1989 م.

2- الوحـــدة المغاربية وأسسها:

لبحث الجذور التاريخية لظهور فكرة- مشروع الاتحاد المغاربي، يجب طرح تساؤلين أساسيين: الأول: باعتبار مفهوم الأمة يقـــوم على"الوحدة الاجتماعية" المنسجمـــة والمشتركة في حدودها الدنيا؛ فهل تشكل بلاد المغرب العربي أمة واحدة على أسس من الفكر والعواطف والتوجهات-كما يرى منظرو القومية العربية كالحصري؟ الثاني: هل العوامل المادية للوحدة ممثلة في: الأرض، الجنس، والدم.. كافية حقا لوحدة شعوب المغرب العربي؟ أم انه من الضروري توفـــر عوامل أخرى معنوية: كالتاريخ، اللغة والدين والثقـــافة.. ككـــل مركب ومتنـــوع لازم ؟

أ-الوحـــدة التاريخية والجغـــرافية:

الإقليم وعاء طبيعي وجغرافي يجتمع فيه الناس ويفترشونه كمأوى وملاذ، ويوحد شعور الانتماء والاتصال به، كما يحضن مصالحهم. هذا ما أكده ابن خلدون فقـــال: (إن وحدة البيئة تؤدي في النهاية إلى وحدة الأخلاق والعادات.) ([6]) بالتالي فموقع المغرب العربي يتسم بالتواصل الجغرافي مشرقا ومغربا، من البحر إلى الصحراء الكبرى. ومورفولوجية السطح متشابهة، كما المناخات وعناصر البيئة المتصلة: مـــاءا، تربة، نباتا، وحيـــوانا. وهي منطقة ربط بين شمال القـــارة ووسطها ونقطة اتصال حيـــوي مع أوروبا والعالم الآسيوي والأمريكي. ناهيك عن المدى الزمني الطويل لاستقـــرار الإنسان المغاربي في المنطقة. اكسبه هذا تواصلا وانسجاما نفسيا، ومزاجا اجتماعيا، ووحدة عقائدية وحياتية متشابهة ومشتركة. فتحول المجال الجغرافي إلى عامل موحد. فما موقع التاريخ من كل ذلك؟ يقول الفيلسوف الألماني شوبنهاور:(التاريخ للأمم بمثابة العقل للأفراد.) والمنطقة المغاربية انصهرت في بوتقة تاريخية وصيرورة زمنية شكلت مصائرها، مآلاتها على مدار التاريخ كله. فكلما يذهب د. سعيدوني: فـــ(إن بلاد المغرب العربي عرف تاريخها أحداثا جعلت منه وحدة تاريخية متكاملة، فكما شكلت له مصيرا مشتركا.. أكدته أحداث منها تعرضها للعديد من الهجمات الاستعمارية عبر تاريخها الطويل ابتداء من الفينيقيين فالرومان والو ندال فالبيزنطيين.) ([7])مرورا بالفتح الإسلامي فالدخول العثماني، وانتهاء بالغزو الاستعماري الأوروبي الحديث للمغرب العربي.. فالمقاومة والتحرير فالاستقلالات

الوطنية لبلدانها. فالتاريخ يشكل حقيقة زمنية شكلت ماضي وحاضر المنطقة، و بصمت ذاكرة شعوب المنطقة بأحداث: انتصارات وهزائم مشتركة؛ صنعت مصيره.

ب- الـــوحدة اللغـــوية والدينية:

يذهب الفيلسوف الألماني فيخته:(إلى التأكيد على أن وجود أمة من الأمم بوجود أنيتها (ذاتيتها) التي هي شخصيتها، وأن هذه الشخصية تتكون من عناصر ثلاثة هي: الدين واللغة وحب الوطن.) ([8]) والمنطقة المغاربية تتكون من مزيج لغوي عريق، أصوله أمازيغية تعربت بفضل الفتح العربي الإسلامي، واستفادت من مفردات لغوية تركية وفرنسية في الحقب الزمنية اللاحقة. يتداول سكان المنطقة لغتين بارزين هما: اللغة الامازيغية باختلاف لهجاتها؛ حيث تشكل -حسب بعض الدراسات- من 36 إلى 40 بالمائة في المغرب الأقصى، و25 إلى27 بالمائة بالجزائر، و01 بالمائة في تونس.([9]) وحوالي03 بالمائة في ليبيا. الأغلبية تتحدث العربية الهجينة (المحلية) تتداولها شفهيا. و تسود اللغة العربية كلغة تدريس وكتابة وتأليف، إلى جانب الفرنسية كلغـــة إدارة و بعض التخصصات العليا بالجامعات، تستخدم في تعاملات بعض النخب الفرانكفونية؛ كلغة دخيلة على المجتمع وثقافته، كموروث عن الحقبة الاستعمارية.

يقول العلامة ابن باديس -رحمه الله- مبرزا دور اللغـــة العربية كعنصر واصل ووحدة بين شعوب المغرب العربي:(اللغة العربية هي ذلك الرباط الذي يربط بين ماضي الجزائر وحاضرها ومستقبلها؛ فهي لغة الدين والجنسية واللغة الوطنية المغروسة، وما يقال عن الجزائر ينطبق على بقية الأقطار الأخرى في المغرب العربي باعتبارها جزءا لا يتجزأ.) (10) كما يؤكد المفكـــر المغربي العروي ما ذهب إليه ابن باديس، معـــززا دور الإسلام في المسألة قائلا: (لقد كانت الحضارة ترمز إلى العقيدة الإسلامية واللغة العربية.)([11]) والإسلام كدين ونظام حياة غير وجه المنطقة برمتها، كما يقول د. غانم فقـــد: (شكل الإسلام كعقيدة والعربية كلسان الوعاء الحضاري والثقافي الذي جمعها في بوتقة واحدة.) ([12]) و العلامة ابن باديس في مقال له بعنوان: "ما جمعته يد الله لا تفرقه يد الشيطان" قائلا: (إن أبناء يعرب وأبناء أمازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضع عشر قرنا. حتى كونت منهم خلال أحقاب بعيدة عنصرا مسلما جزائريا؛ أمة الجزائر وأبوه الإسلام.) ([13]) ويوضح المفكر الجزائري محمد أركون شعور الانتماء المغاربي بالقول: (إن الشعور

بالانتماء إلى الأمة شعور يومي في المغرب العربي؛ إنه السلوك الذي يميز روح التضامن إذا تعرض بلد شقيقه إلى عــدوان...)([14])

3 – التجارب الوحــدوية المغاربية في التاريخ الحديث و المعاصر:

أ– العثمانيون و وحدة المغــرب العربي: بعد سقوط دولة الموحدين الجامعة في مطلع القرن 13م، وبعد حوالي 03 قرون من الصراع والتشرذم السياسي والطائفي بين دوله (المرينية بالمغرب عام1230م:الزيانية بالجزائر1232م،الحفصية بتونس عام 1230م)، خلالها كان سقوط الأندلس وعاصمتها غرناطة عام 1492 م؛ لتنتهي حقبة من الحكم الإسلامي هناك دامت 08 قرون من التطور والحضارة. تعرض بعدها المغرب العربي إلى الانقسام الداخلي والضعف السياسي والعسكري، كما نتج عنه الغــزو الاسباني والايطالي لبلاد المغرب.. في هذا الوقت الحرج قدم العثمانيين كمنقذين ليوحدوا أجزاءه ممثلة في:(الجزائر عام1518م، تونس عام1535 م، ليبيا عام1554 م.) لتصبح المنطقة – باستثناء المغرب الأقصى– في حمايتهم. مشكلة دولا موحدة تحت سلطة دايات، باشاوات، و بايات محليين؛ يتبعون سلطة الخلافة العثمانية الإسلامية هناك في الباب العالي باسطنبول؛ عاصمة الإمبراطورية العثمانية الجديدة.

ب– الاحتلال الأوروبي و النضال المشترك: يظهر من خلال تجارب"حركات الإصلاح" التي قامت على المرجعية الإسلامية وعناصر الهوية المغاربية الأخرى: لغة و ثقافة، تاريخ و مصير مشترك... لتبدو حركات ابن باديس، خير الدين باشا، تونس الفتــاة بزعامة الثعالبي، الحركة الإصلاحية بالمغرب، السنوسية بليبيا فاعلة في هذا السياق.

ج– جبهة الدفاع عن إفــريقيا الشمالية: تأسست في الحرب.ع2 بشكل منفرد، لكنها كانت تحمل روحا مغاربية مشتركة، مطالبها استقلالية متماثلة؛ عبرت عنها من خلال:

* بيان الشعب الجزائري شهــري فيفــري– مارس 1943م. ([15])
* عريضة 11 جانفي 1944 التي قدمها حزب الاستقلال المغربي.
* ميثــاق الاستقــلال بتونس في 23 أوت 1946 م.

لتتوحد في جبهة الدفــاع عن إفريقيا الشمالية عام 1944 بقيادة العلامة محمد لخضر حسين(شيخ الأزهر لاحقا) وسكرتارية الشيخ الثائر الورتلاني، وتمثيل مغاربي. جاء في ميثاق التأسيس:(لما كانت شعوب شمال إفريقيا متجهة نحو وجهة واحدة لمحاربة الاستعمار بجميع أنواعه والسير نحو الاستقلال و تثبيت السيادة الوطنية... رأى ممثلو

الهيئات السياسية الموقعة على هذا أن يخـــرجوا هذه الوجهة المتحدة من خير النظـــر والعاطفة إلى خير العمل راجين من المولى تعالى أن يسدد خطاهم و يبلغ مناهم..) ([16])

هـــ – مؤتمر المغرب العربي 1947م: انعقد في 15 فيفري1947م استمرت أشغاله حتى يوم 22 فيفري، حضره ممثلي حزب الدستور الحر، حزب الشعب الجزائري.. بالقاهرة، الوفد المراكشي ومعه رابطة الدفاع عن مراكش.([17]) ناقشوا قضية الاستعمار الفرنسي– الاسباني بالمغرب العربي، سبل مواجهتهم والتخلص منه.

و– مكتب المغرب العربي 1947م: ، تنفيذا لقرارات المؤتمر السابق أنشئ بالقاهرة مكتب المغرب العربي، شمل ثلاثة أقسام: القسم المراكشي،القسم التونسي،القسم الجزائري.. الشاذلي المكي و خيضر ممثلا الجزائر.

ك–لجنة تحرير المغرب العربي 1947م: أنشئت بفضل جهود المجاهد الكبير عبد الكريم الخطابي، بعد عودته من منفاه بجزيرة "لارينيون" الفرنسية؛ حيث منح اللجوء السياسي من قبل الملك فاروق، وشكلت لجنة ثلاثية توجت عملها بتأسيسها اللجنة في09 ديسمبر 1947 م، ممثلة للأحزاب المغاربية الثلاث على النحـــو التالي:

* الرئيس: محمد بن عبد الكريم الخطابي

* الأمين العام: الحبيب بورقيبـــة.

* أمين الصندوق: محمد بن عبود(حزب الإصلاح) أعلن عنها رسميا 05 جانفي 48م.

ل – مؤتمر طنجة الثاني: انعقد من27 إلى 30 أفريل 1958م، بعد استقلال كل من تونس والمغرب عام 1956 م، وتنامي قوة الثورة الجزائرية. ووقوع أحداث ساقية سيدي يوسف في 08 فيفري 1958م. جاءت الدعوة من "حزب الاستقلال المغربي" بتنسيق مع الحزب الدستوري الحر بزعامة بورقيبة، وقيـــادة جبهة التحرير؛ لبحث مشاكل المغرب العربي على رأسها استمرار حرب الجزائر. يؤكد المجاهد عبد الحميد مهري على أن الجبهة قبلت الدعوة و زكتها لدوافـــع: ([18])

أ– طول الحرب التحريرية الجزائرية وتأثيراتها على الجارتين.

ب– تنامي تيار الوحدة القومية في المشرق(بين مصر وسوريا، وكذا العراق والأردن.)

ج– حل بعض المشاكل العالقة بين البلدان الثلاثة: ليبيا، واستمرار ثورة الجزائر..

ناقش المؤتمر جدول أعمال مكون من:

أ– حرب استقلال الجزائر.

ب- تضييق أثار الاستعمار في المغرب العربي.

ج - اتحاد المغرب العربي.([19])

د- مشاريع التنمية المشتركة في عهد الاستقلال: تنوعت مشاريع التنمية الاقتصادية البينية؛ منها:

* مشروع الشركة المغاربية للطيران عام 1970م.

* مشروع القطار المغاربي: تونس-الدار البيضاء؛ حيث اكتمل شطره بين الجزائر وتونس عام 1974 م، والشطر الثاني لم ينجز بعد توقف العمل به منذ عام 1975م.

* مشروع التكامل الكهربائي المغاربي.

* مشروع البنك المغاربي للإدماج الصناعي: فعل بين الجزائر وتونس وتوج ببناء مصنع الاسمنت بالكاف..

5 - قيام اتحاد المغـــرب العـــربي 1989م:

* لقاء قمة بين الرئيس الشاذلي بن جديد وملك المغرب الحسن الثاني عام 1983؛ مثل لقاء المصالحة وتجديد مشروع طنجة 1985م، فكان عربونا للوفاء و فتح صفحة جديدة في علاقات البلدين الشقيقين.

* قمة الساقية بتونس 08 فيفـــري 1988م بين الرؤساء: الشاذلي بن جديد، زين العابدين بن علي، معمر القذافي، الحسن الثاني؛ للاحتفال بذكرى سقوط شهداء الجزائر وتونس في تلك الذكرى المحزنة.

* قمة زرادة بالجـــزائر10جوان1988م،توجت بتكوين لجنة مغاربية عليا لانجاز مشروع الوحدة؛ اشتغلت على الموضوع في 05 لجان، من جويلية 1988م حتى جانفي 89 م.

* قمة مراكش في 17 فيفري 1989م: جمعت زعماء البلدان الأربعة + معاوية ولد الطايع رئيس موريتانيا. وتوجت رسميا بتأسيس: اتحاد المغرب العربي([20]) الذي تكونت هياكله من: - المجلس الرئاسي: يجتمع كل 06 أشهر على مستوى القمة.

- مجلس وزارة الخارجية: يحضر ملفات القمم واللجان المختصة.

- مجلس الشورى المغاربي: يضم 50 عضوا، يجتمع في دورات عادية كـــل سنة.

- الهيئة القانونية: (مجلس تحكيمي أو محكمة عليا) يتكون من 10 قضاة يعينون لمدة 06 سنوات؛ لبحث القضايا العالقة والخلافية بين بلدان الاتحـــاد.

6-إشكالية الإتحاد المغاربي بين حقائق التاريخ والمغالطات الجيو-سياسية:

ورد في وثيقة المؤتمر الأول للثورة الجزائرية بالصومام 20 أوت 1956م التأكيد على فكرة الوحدة المغاربية فيما يلي: (يتطلع أبناء الجزائر المستقلة إلى التضامن الطبيعي الضروري بين بلدان المغرب العـربي الثلاثة، لأنها مجموعة كلية تؤلفها الجغرافيـا والتاريخ،اللغـة الحضارة والمصير، لذا يجب أن يسفر هذا التضامن على تأسيس الدول الثلاثة.) ([21]) كما جاء نفس التأكيد في جل اللوائح الختامية لمؤتمرات الأحزاب المغربية كاتحاد القوات الشعبية، وعلى رأسها حزب الاستقلال المغربي. من بينها قوله:(لا يجوز أن تبقى وحدة المغرب العربي مجرد شعار أجوف دون مدلول، بل يجب أن يعطى لهذا الشعار مدلوله الصحيح...أن تخط الطريق نحو الوحدة الحقيقية...) ([22]) لكن -للأسف- فإن بعض الخلافات البينية الحدودية والسياسية؛ كمشكلة الصحـراء الغربية التي برزت بعد خروج الاستعمار الاسباني عام1975م،إلى جانب تباين التوجهات الإيديولـوجية والسياسية للأنظمة بعد استقـلالها.. كلها أسبابا و عـوامل حالت دون التجسيد الميداني الحقيقي لهذا المشروع الطموح. وصل الأمر إلى مستوى شن الحروب البينية كما حدث بين المغرب و الجزائر في أكتوبر 1963م. و نزيف الجرح الاستعماري لم يندمل بعد. وكانت المواجهة المسلحة الثـانية بين البلدين عام 76م؛ بسبب مشكلة الصحراء الغربية والنظـرة المتناقضة لها لدى البلدين.. وجاءت ما يسمى "بالعشـرية الحمراء" الإرهابية التي عاشتها الجزائر في تسعينيات القرن الماضي،. وإسناد ودعـم آلة الدمار والإرهاب الأعمى في الجزائر من طرف بعض الأطراف المغاربية على رأسها السلطة الملكية بالمغربية - بحسب الرواية الرسمية الجـزائرية- على خلفية كل ذلك تصاعد التوتر ليبلغ حد الانسداد؛ انتهت بغلـق الحدود البينية عام 1994م، و فرضت تأشيرات العبور على مواطني البلدين.. أجهض ذلك آخر حلم لتحقيق الوحدة المغاربية! بعيدا عن لغة الاتهامات التي شكلت و لا تـزال عملة رائجة في القاموس السياسي- الإعلامي لهذه البلدان، فإن السـؤال الأساسي الذي يجب أن نطرحه و نبحث له عن إجابات عملية مقنعة؛ تنقذ المشروع-الحلم من الموت النهائي هو: ما هي القـراءة الموضوعية الممكنة لبعث مشروع الإتحاد المغاربي من جديد؟ ما الطريقة المعرفية- المنهجية وآليات إخراج المشروع من: ذاكـرة التاريخ المغلقة، الحدود الجغـرافية

السياسية الظرفية، ورومانتيكيات اللغة والدين والثقافة..إلى واقع الحقيقة الموضوعية ؟

7-كرونولجيا تاريخية-سياسية للقضية الصحراوية المعقدة:

يعد النزاع حول الصحراء الغربية من أطول النزاعات التي عرفها التاريخ المعاصر فيما يتعلق بتسوية خلافات على أرض متنازع عليها، ففي حين يعتبر المغرب ضمه للصحراء بعد انسحاب القوات الأسبانية عام 75 حلقة من حلقات استكمال وحدته الترابية، وتطالب الجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمـــراء وواد الذهب(البوليســـاريو) بالانفصال عن المغرب وتعتبر ضمه للصحراء احتلالا لأراضيها. غير أن المشكلة تظل في الواقع نتاج سلسلة ترسبات تاريخ معقد؛ تداخلت فيه عوامل متشابكة ساهمت أغلبها في تأجيج الوضع وتعقيده للعقد الرابع دون حل للقضية؛ باستثناء حضور أمريكـــي- أوروبي برغماتي قـــوي، وغياب عربي تـــام وغير مبرر.. ؟

فكيف كانت بدايات النزاع حول الصحراء الغربية ؟ ماهي تفاصيل هذا الملف الشائك ؟ و هل كانت مقاربة أطراف النزاع للمشكل من المستوى الذي يستطيع حقا أن يفضي إلى إنتاج حلول جذرية للملف؟. أسئلة وأخـــرى سنحاول الإجابة عنها عبر عرض كرونولوجي-استقصائي لملامح نزاع ظل ولا يزال فتيله متقدا للأسف ! ؟

أ- إعلان المقاومة الصحراوية لـــ "جبهة تحرير الصحراء

* عام 1968 محمد سيد إبراهيم بصير ينظم مقاومته ضد الاحتلال الإسباني و يطالب باستقلال الصحراء الغربية.

* في 17 جوان 70م اندلاع مظاهرات عنيفة بمدينة "العيون" الصحراوية ضد مشروع تحويل الصحراء الغربية إلى منطقة إسبانية، والمطالبة بالاستقلال. وفي سنة 72م المغرب-بضغط من الجزائر- يعترف بموريتانيا مستقلة.

* عام 1973 الجنرال "فرانكو" حاكم إسبانيا آنذاك، الذي كانت لبلاده حينها علاقات سيئة مع المغرب و بعد إعلان نيته الانسحاب من الأراضي الصحراوية، يتصل بالرئيس بومدين ليقترح عليه استعداده التخلي عن الصحراء الغربية لصالح الجزائر، إلا أنه رفض العرض. لينعقد لاحقا في23جويلية 73م لقاء ثلاثي بين رؤساء دول(الجزائر، موريتانيا، الملك المغربي) بأغادير لتحديد "مخطط عمل مشترك "حول الصحراء، ينتهي إلى الفشل لتباين المواقف.

* في 10 ماي 1973 تأسيس"الجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء ووادي الذهب" تعلن المقاومة ضد الاحتلال الثلاثي: الإسباني، الموريتاني، المغربي بقيادة "مصطفى والي السيد.* بتاريخ 17 سبتمبر 74م المغرب يتقدم بطلب إلى الجمعية العامة لتحديد وضعية الصحراء؛ فعلا استجابت الجمعية للطلب بعرض القضية على محكمة العدل الدولية. جاء جواب المحكمة سنة 1975 كالتـــالي: أولا اعتبار أن الصحراء قبل الاحتلال الاسباني لم تكن أرضاً بلا مالك، مع إثبات علاقات البيعة بين القبائل الصحراوية والسلطان المغربي. ثانيا: اعتبرت المحكمة أن البيعة والولاء لا يرقى إلى مستوى السيادة و من ثم الملكية.
* أكتوبر 1974م توقيع قيادة كل من موريتانيا والمغرب بمدريد اتفاقية ثنائية سرية لاقتسام الصحراء الغربية.

* ماي 1975م إرسال الأمم المتحدة لأول لجنة تحقيق إلى الصحراء الغربية انتهت إلى الإقرار بمطالبة الأغلبية الساحقة من الشعب الصحراوي بالاستقلال، واعتبار "جبهة البولزاريو" القوة السياسية الوحيدة المهيمنة على الأرض الصحراوية". مطالبة إسبانيا بإجراء استفتاء في نهاية عام 75، قابله المغرب بالرفض.
* أكتوبر 1975 مناقشة محكمة العدل الدولية بـــ"لاهاي" ملف الصحراء الغربية بطلب من المغرب، خلصت إلى وجود روابط قانونية –في عهد الاحتلال الإسباني– بين بعض القبائل الصحراوية ومملكة المغرب قائمة على "المبايعة" فقط. * سبتمبر 1975 انطلاق الجولة الأولى للمفاوضات بين "إسبانيا" و "جبهة البوليساريو"، تبادل الأسرى بينهما.
* 06 نوفمبر 1975م: قيام حوالي 350 ألف مواطن مغربي بأمر من الملك الحسن الثاني بمسيرة من المغرب إلى الأراضي الصحراوية بعد اجتياز الحدود بينهما عرفت بـــ"المسيرة الخضراء"؛ انطلقت من مدينة "طرفايا" في أقصى جنوب المغرب باتجاه "العيون" الصحراوية، بهدف "إعادة" الأراضي إلى "الوطن الأم". فانعقد مجلس الأمن في اجتماع طالب فيه المغرب–دون اتخاذ أي قرار رسمي، أو إجراء تصويت– بتوقيف المسيرة فورا. تَمثل موقف الجـــزائر حينها بنشر جنودها على الحدود مع المغـــرب، واصفة السلوك المغربي بـــ"العملية الانتحارية." أما إسبانيا فقد جندت 14 سفينة حربية قبالة جزر الكناري منها اثنتين مزوّدة كـــل منهما بقاذفات للصواريخ جد متطورة. لكن دون جدوى أو تأثير يذكر، فالجنرال "فرانكـــو" كان على فراش الموت،

* عام 76م الإعلان عن إنشاء "الجمهورية الصحراوية على الأراضي الصحراوية قرب الحدود الجزائرية.

* عام 1981م إشراف منظمة الوحدة الإفريقية على تنظيم الاستفتاء بعد إعلان الملك الحسن الثاني موافقته على ذلك بقمة نيروبي. و في السنة الموالية تم قبول الجمهورية الصحراوية كعضو في منظمة الوحدة الإفريقية.

* عام 84م المغرب يعلن انسحابه من عضوية منظمة الوحدة الإفريقيـــة، و يرفض تنظيم الاستفتاء تحت إشراف منظمة الوحدة الإفريقية؛ باعتبارها طرفاً في النزاع وليست حكما محايدا؛ لأنها قبلت الجمهورية الصحراوية كعضو.

* جويلية 87 م الملك الحسن الثاني وفي زيارته للندن، يصرح أنه:"على استعداد لفتح سفـــارة في المدينة التي يختارها الصحراويون عاصمة لوطنهم؛ في حالة ما أفضى استفتاء تقـــرير المصير إلى استقـــلال الإقليـــم.

* عام 88م تم الاتفاق على تنظيم الاستفتاء من طرف الأمم المتحدة وقام الأمين العام "خافييـــر دي كويلار" بتعيين مبعوث خاص له في المنطقة وتعيين بعثة أممية لتحديد الهوية.. * في عام 1997 م عندما تم تعيين "جيمس بيكر" كممثل خاص للأمين العام في الصحراء. بذلك أصبح الكل يجزم بأن المنطقة دخلت ما يمكن تسميته "عهد الحلول الأمريكية" ورعايتها للقضية. بعقد مفاوضات بين الطرفين في كل من لشبونة 1 و 2، ثم في لندن. توجت جميعها باتفاق بوسطن–تكساس(بالولايات المتحدة)باتفاق يحدد شروط الشخص لتحديد هويته.

* أفريل 1997 لقاء بين الملك الحسن الثاني و جيمس بيكـــر ليرد على طلبه بتكرار القول السابق: "لا أريد إلا استفتاء تقـــرير المصير."

و بعد فشل مسلسل تنظيم الاستفتاء –بسبب عرقلة الطرفين– جيمس بيكـــر والأمين العام يطرحان اتفاق آخر يسمى "اتفاق الإطار" أو "الحل الثالث"؛ وهو عبارة عن "حكـــم ذاتي" يمنح للصحراويين في إطـــار الجهوية الموسعة (حكومة،الهيئة التشريعية، تدبير الشأن المحلي) من اختصاص الشعب الصحراوي، أما (العملة، العلم، النشيد الوطني، الجيش، السياسة الخارجية) فتكون من اختصاص الدولة المغربية.

* 22 فيفـــري 2001م الأمين العام للأمم المتحدة يطرح ما يسمى بـــ:"خيار التقسيم" أو"الحل الرابع"، أي تقسيم الصحراء ما بين المغرب والجزائر. وحاولت بعض الأطراف

أن تظهر الجزائر كطرف في النـــزاع بشكل واضح، غير أن الجزائر رفضت هذا الطرح و كذلك المغرب رفض الخيار بشدة معتبرا ذلك مساسا بوحدته الترابية.

* مع بداية عام 2003 م يتقدم "بيكر" بمشروع إلى الأمين العام سمي" الاتفاق الإطار" الذي وافق عليه المغرب سابقا، يتمثل في "خطة للسلام من أجـل تقرير مصير شعب الصحراء" رمت الخطة إلى المزج بين نظام الاستفتاء، وبين الحل السياسي. لكن المغرب رفض الخطة واعتبرها تراجعا عن مقررات الاتفـاق-الإطار؛ لكونه يتضمن العديد من المقترحات التي تمس بالسيادة المغربية على الإقليـم (مثل وجود قضاء مستقـل، مشاركة الإدارة التنفيذية في جميع المفاوضات المرتبطة بملف الصحراء، انسحاب الجيش المغربي بعد تسلم الإدارة الجديدة المرتقبة لمهامها، وإجراء استفتاء بعد أربع (04) سنوات ولا يجب أن يتعدى ذلك. و قد تمت المصادقة على القـرار 1495 من مجلس الأمن؛ الداعم لخطة "بيكـر" بتاريخ 31 جويلية 2003 دون فرضها.

* بتاريخ 24 سبتمبر 2004م المغرب يوجه مذكـرة إلى الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة السيد كوفي عنان بهدف توضيح موقفه والتأكيد على التزامه الذي لا رجعة فيه من أجل حل سياسي؛ لوضع حد لهذا الخلاف.

* 24 ماي 2005م يتأجل انعقاد القمة المغاربية بين القـادة المغاربة؛ بسبب تداعيات المشكلة الصحراوية، وقضايا خـلافية بين الجزائر والمغـرب، خاصة بعد غلق الحدود البرية بينهما.

* 26 جوان2005م "بيتر فان فالسوم" يعين كمبعوث شخصي للأمين العام للأمم المتحدة كوفي عنان للعمل على رفع معوقات الملف.

* عام 2007م الأمم المتحدة تدعو المغرب والبوليساريو إلى مفاوضات مباشرة. أساسها مقترح"الحكم الذاتي" ؛ بمشاركة ممثلين عن كل من: الجزائر، اسبانيا، فرنسا، والولايات المتحدة. و يصدر تصريحا عن ممثل الأمين العـام واصفا المفاوضات بين الطرفين بالصعبة جـدا.

* نوفمبر 2010م إطلاق جولة جديدة من المفاوضات بين الطرفين تحت رعاية الأمم المتحدة بالولايات.أ، غير أنها لم تثمر عن تقدم يذكر؛ لتنتهي بالفشل خاصة بعد إقدام السلطات المغربية على اقتحام مخيم "إكديم الزيك" بالقرب من مدينة العيون. المحتلة يوم 08 نوفمبر2010م، وارتكاب مجزرة ضد الصحراويين الأبرياء.(*) تلك كرونولوجيا

مختصرة تؤرخ لمسلسل النزاع حول الصحراء ؛ ليفضي مرة أخرى بعودة القضية إلى نقطة الصفر، لتتزايد مؤشرات التصعيد والتعفن الذي قد يقود المنطقة برمتها –إن لم نتدارك الأمر شعوبا و حكومات– إلى مواجهة مفتوحة على كل الاحتمالات..

8– مقاربة معرفية لحل النزاع.. واستئناف مشروع الإتحاد المغاربي:

أ– الطرح الفيـــدرالي للمشكلة الصحراوية... مخرجا مؤقتا ([23])

يمكن للدول المغاربية أن تبحث المشكلة الصحراوية –باعتبارها العائق المزمن الحائل دون حلحلة الموضوع أو أية تسوية جادة له؛ خارج سياق التشبث بالطرحين والموقفين الكلاسيكيين لكل منهما للقضية. ذلك المتعلق بفكرتي "الحكم الـــذاتي" المحدود بالنسبة للمغرب، وفكرة "تقـــرير المصير" عبر استفتاء عـــام برعاية الأمم المتحدة؛ كما يطالب الصحراويون مدعومين بموقف الجزائر. بقبول تبني تسوية جديدة للقضية؛ يمنح فيها الشعب الصحراوي –بموجب تعديل في الدستور المغربي– حكما ذاتيا موسعا، أقرب لما يتمتع به إقليم كردستان في العراق حاليـــا. لبناء "حكـــم محلي": بمؤسسات تشريعية، حكومة محلية يديرها الصحراويون ضمن النظام السياسي المغربي. و بإقناع المملكة بالدخول في "تجربة فدرالية" سابقة لأوانها، تساعد دول المغرب العربي على المضي أبعد في مشروع بناء اتحاد المغرب العربي "ككيـــان فـــدرالي".

على نفس المنوال يمكن البحث في إمكانية قيام "اتحاد فدرالي" بين إقليم الصحراء الغربية وموريتانيا–من باب تقوية الطرف الأضعف في الاتحاد المغاربي– تعمل دول المغرب العربي الأخرى لتوفير اعتراف دولي بهذا الكيان. على أن تتعهد تلك الدول بدعم حقوق الشعب المغربي في استعادة سيادته الكاملة على ترابه في مقاطعتي "سبته" و "مليلية"..

لعلها أن تكون هذه الصيغة تجربة رائدة و خطوة استباقية لبقية لشعوبنا ؛ في سياق البناء المتدرج "لمغرب عربي فدرالي"؛على غرار دول دول الاتحاد الأوروبي.

ب– دور النخب والمجتمع المدني في تفعيل المشروع و الضغط على حكوماتها

نعتقد أن مثل هذه المقـــاربة وغيرها؛ المنتجة لحلول واقعية مرنة لا يمكن أن نتوقعها من الساسة المنغمسين في خلفيات النزاع وحساباته السلطوية.. بل تحتاج بالتأكيد إلى قاعـــدة عريضة من فئات المجتمع المدني المستقلة عن الوصاية الرسمية، وإلى دعم وضغط متواصل من "النخب المدنية المغاربية" بمسمياتها: الفكرية–العلمية، الاقتصادية، والإعلامية، الدبلوماسية.. وغيرها. وعليها أن تدرك بمسؤولية قومية أنها إن لم تتحرك

بسرعة وفعالية في اتجاه تدارك المشروع الوحدوي –المرهــون سياسيا ورسميا– فإنه قد يؤول إلى ما آل إليه مسار التسوية في القضية الفلسطينية.. وعليه فإننا ننذر الجميع إلى خطورة ما قد يؤدي إليه المكر الغربي وبعض دول الجوار المتوسطي المتحالفة مع الكيان الصهيوني الغادر؛ من آثار وخيمة على شعوب المنطقة؛ بسبب الدفع المبيت إلى انفجــار سابق لأوانه بين الأشقــاء المغاربة.

ج– تفعيل دور الدبلوماسية الاقتصادية–الاستثمارية بين دول المنطقة؛ نعني بها الجزائر والمغرب خاصة لمجابهة واقع الفقر والعوز في الأقاليم الحدودية المجاورة؛ التي دفعت الظروف الطبيعية والمناخية القــاسية وضعف التنمية.. بسكانها الى زراعة الحشــيش وإنتاجه كمصدر للعيش، وتسويقه عبر التهريب الموجهة إلى جارتها لتحصيل الرزق.

د– بعث رسائل الطمأنينة إلى دول الاتحاد الأوروبي، بأنها ستجد من المغانم الكثيرة في مغرب عربي موحد مستقر وآمن؛ يمنحهما العمق الجغرافي السياسي والاقتصادي والأمني.على حدودهما الجنوبية المهددة بموجات الهجرة غير الشرعية، و العنف الذي تنتجه جغرافية غير مستقرة أنتجت الظاهرة الإرهابية، بارونات التهريب والسلاح.

هـــ– مساهمة القوى الوطنية–القومية والإسلامية، المؤمنة بمشروع الإتحاد المغاربي في توعية شعوب المنطقة وإقناع حكامها؛ بأن كُلفة تحقيق التسوية التي ترضي جميع الأطراف هي أقل بكثير من كلفة إدارة الصراع على نار باردة، والإنفاق على تسليح الجيوش وتعزيز الحدود بالعساكر والجواسيس على حساب التنمية ورفاهية شعوبها.

الخاتمــة:

نعتقد بأن الخطوة الأولى في طريق انجاز الاتحاد المغاربي، هي بناء رؤية كلية للمشرع قوامها: أولا: تفعيل دعائم التاريخ والجغرافية، الدين والثقافة واللغة.. و باقي القواسم المشتركة بين الشعوب. تضطلع بها نخب من العلماء والمفكرين والمثقفين والخبراء..

ثانيا: نقل ورشات العمل ومشاريع الاتحاد المغاربي المنجــزة إلى المستوى الرسمي بداخله، تكوين هياكل وأجهزة تتصدى لمهمة التفعيل والانجاز بمرونة و براغمــاتية.

ثالثا: إشراك الجماهير ضمن خطة إعلامية وعمل ميداني، يعــزز الروابط والقواسم، ويبحث تسوية المشاكل النفسية والاجتماعية، اللغوية–الثقافية العالقة في عمل وحدوي بناء. لتبرز الجماهير كقوة حاضنة ومحركة للمشروع. المقاربة العلمية قد تمكن فعلا من تسوية المشكلة الصحراوية العالقة، وإحياء حلم الإتحاد المغاربي؛ ونقله من رفوف

التاريخ، مشاكل الجغرافيا، وصراعات السياسة والإعلام.. إلى التجسيد العملي الميداني؛ كحقيقة تاريخية، وانجاز عملي، يفضي إلى تطلع مستقبلي مشروع نحو الأفضـــل.

هوامش:

1 – شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب مجد مزالي، الدار التونسية للنشر، تونس 1969، ص 10

2– موسى لقبال، المغرب الإسلامي..، ط3، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر 1964 ، ص13

3– الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، الشركة الوطنية.ن.ت، الجزائر 1976،ص 29

4– الميلي، مرجع سابق، ص 30

5– نفسه.

6– تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ط2، الشركة.و.ن،الجزائر81، ص44

7– ناصر الدين سعيدوني، وحدة المغرب العربي بين الحتمية التاريخية والواقع المعاش(مقال)، المجلة الجزائرية للعلاقات الدولية، عدد 03، ديوان المطبوعات الجامعية 1986 ص56

8– مولود نايت بلقاسم، اللغة والشخصية في حياة الأمم(مقال)، مجلة الثقافة، السنة1، عدد 2، ماي 1971، ص 07

9–صلاح العقاد،المغرب العربي دراسة في تاريخه الحديث..مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة 1980،ص09

10 – تركي رابح، مرجع سابق، ص 65

11- Laraoui (A), L'histoire du Maghreb, un essai de synthèse, Fondation, Paris 1982, p 121

12– محمد الصغير غانم، مدخل للعلاقات الحضارية بين المغرب والمشرق القديمين (مقال)، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 02، جامعة منتوري قسنطينة، ص 34

13– تركي رابح، مرجع سابق، ص 36

14- Arkon M, article: L'islam et les islamises, Revue Histoire N° 35, 1984, P33

15– فرحات عباس، حرب الجزائر وثورتها(ليل الاستعمار)،ترجمة ابوبكر رحال، مطبعة فضالة، المغرب؟ ص 169 –174

16–علال الفاسي،الحركة الاستقلالية في المغرب العربي، مؤسسة الفاسي،الرباط المغرب 1983،ص485

17- مومن العمري، شعار الوحدة ومضامينه في المغرب العربي أثناء فترة الكفاح الوطني، رسالة دكتوراه غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة منتوري قسنطينة(2009 – 2010)، ص171- 172

18 - نفسه، صص 193- 207. أنظر كذلك: مالكي محمد، الحركة الوطنية والاستعمار في المغرب العربي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1993، ص 458

19- للتوسع في المسألة أنظر محمد الميلي، وحدة المغرب العربي، مجلة المستقبل (مقال)، السنة 10، العدد 420 ماي 1986،ص 23

20 . توفيق المديني، دينامية التعاون الإقليمي في المشروع المغاربي (مقال)، مجلة الدراسات الفلسطينية (90/ 91) ديسمبر 1999، جانفي 2000

21 - حزب جبهة التحرير الوطني، النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني 1954- 1962، نشر وتوزيع قطاع الإعلام والثقافة والتكوين، الجزائر، جويلية 1987، ص 42

22- مهدي بن بركة، الاختيار الثوري في المغرب، دار الطليعة، بيروت 1964، ط2، ص 53

(*) الرئيس الصحراوي محمد عبد العزيز، أيها الملك.. احذر "بطانة سوء" تدفع بك إلى حرب خاسرة (رسالة)، جريدة الشروق اليومي، عدد3138، يوم الخميس09 ديسمبر 2010م، ص4

23- أنظر بتوسع مقالة الأستاذ حبيب راشدين، "البحث عن دعاة لحق المغاربيين في تقرير المصير" (مقال)، جريدة الشروق اليومي، عدد يوم: 2010.02.14 م.